حديقة المقتطف

سعدي

الشاعر الفارسي

لية فرح

سعدي

الشاعر الفارسي

كان للصلة الادبية التي توثقت عراها بين العربية والفارسية في ظل الحرية والتسامح الادبي شأن كبيرٌ في ما ادركتاهُ من سعة وغناء في المادة والشكل والغاية . فالكتابة عن السعدي الشاعر الفارسي الشيرازي تبعث في النفس نواحي من الذكرى والتأمل وتثير الحنين الى عصر النور في حياة الادب العربي والفارسي جميعاً ، بل ان في هذه الكتابة شيئاً من السلوى للذين يحيون أبداً ساخرين هازئين بمظاهر العيش الناعم المترف ، بل لعلَّ في حياة السعديّ ما تستقرُّ بهِ انفاس تتصعد من صدور محترقة لكثير من الادباء تفيء عن شكاية القلوب من هذا العيش المشرَّد الذي يخالونهُ رماداً تخبو تحت ذراتهِ جذوة ذكائهم ويطفىء بهِ مصباح نبوغهم . فقد عاش السعديُّ كما عاشوا ، ولكنهُ ظفر من هذا العيش بالشهرة التي لم يتمتع بها غير نفر يسير من شعراء الشرق وكتَّابهِ الثابتين

وقد اختلف المؤرخون اختلافاً كبيراً في تاريخ ميلاد السعدي وتاريخ وفاته ولكنَّ كثيراً منهم يرى انهُ ولد بشيراز سنة ١١٧٥ وتوفي سنة ١٢٩١ م

وكانت شيراز في ذلك العهد من منازه الدنيا التي تفتن الشعراء والادباء وكانت رياضها وعيونها وانهارها معدن الهامهم ووحي خيالهم وقد استهوت بجمالها فيمن استهوت شاعرنا السعدي فافاض عليها من آيات ثنائهِ واعجابهِ ما امتلأت بهِ صفحات ديوانهِ (الكليات) ومؤلفاته الاخرى . ففي ذلك يقول ما ترجمتهُ :

ما اجمل رياض الصبح التي اراه مشرقاً على سر الله شيراز . سأرى مرة اخرى تلك الجنَّة ، جنَّة الارض التي تجود بالاثمار المباركة . لا بالقحط والظلم

وربي لا تألف الظلمات هذا الوطن الذي استقرَّ عليهِ عرش سليمان العظيم

***

نشأ السعدي يتيماً يتجرَّع مرارة اليتم ويحس آلامه وقد لازمهُ هذا الاحساس بعد ان اكتمل شبابه وألحَّ عليهِ فقال قصيدته الرائعة التي يسترحم فيها القلوب

ويستعطفها على ايتامى الذين لم يستشعروا حلاوة العيش في ظل الأبوة الرحيمة

استهل هذه القصيدة بما ترجمتهُ :

ارحم اليتيم الذي مات ابوه ، أقض التراب عن ملابسه ، فانك تعلم انهُ لاحياة للشجرة بعد ان تنقطع اصولها

ثم قال : من يخفف عن اليتيم احزانه اذا فاضت دموعه ، من يسرّي عنهُ اذا اعتاجت نفسه ، آه ! اجتهد ألاَّ يبكي لان عرش الرحمن يهتز لتنهدات اليتيم المحزنة المؤثرة . واختتمها بقوله :

أنا اشارك اليتيم في احزانه لاني قد ذقت في طفولتي يأس اليتيم

مات ابوه وهو طفل فعاش في كنف السلطان سعد بن زنكي سلطان فارس ايام طفولته وشطراً كبيراً من أيام شبابه

ولم ينقل الينا من ترجم السعدي من المؤرخين كيف كان يعيش في ظل هذا السلطان وما كان نصيبه من رفه الحياة وبؤسها . وكل ما وصل الينا انهُ عاش في رعايته زمناً ثم فارقهُ ليستكمل حياته العلمية على شيوخ بغداد الذين كان لهم اكبر أثر في ثقافته وأدبه

والمفهوم مما ذكره المؤرخون ان دراسات السعدي كانت في حياة سعد بن زنكي وان هذا السلطان لم يمت حتى بلغ السعدي ثماني وثلاثين سنة وهو عمر طويل مكن له أن يشبع نهمه من علوم الدين وقواعده واصوله ومن مصطلحات الفنون وادواتها واساليبها ومكن له ايضاً أن يملأ قلبه معرفة بأحوال الصوفية ومذاهبهم ودراساتهم الروحية العالية فقد اتصل في بغداد بكثير من شيوخ العلم ثم انقطع أخيراً إلى شيخين جليلين من اعيان العلماء هما الامام شهاب الدين السهروردي المتوفى سنة ٦٣٢ هـ وكان واحد دهره في الحديث والتفسير والتصوف ، والامام ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ شيخ الوعاظ والعلماء والمصنفين . وقد وقع البستاني هنا في خطإ تاريخي واضح لأنهُ عدَّ من شيوخ السعدي الذين تلقى عليهم علم الباطن الشيخ عبد القادر الجيلاني صاحب الطريقة الكيلانية المشهورة في العراق والممالك الشرقية الاسلامية — وذلك غير صحيح لأن الكيلاني توفي سنة ٥٦١ هـ اي قبل ميلاد السعدي بعشرين سنة تقريباً

في وسع الباحث في حياة السعدي ان يدع جانباً حديث المؤرخين عنهُ بعد عهد المدرسة ويترك للسعدي نفسه الحديث عن هذه الحياة المليئة بالعبر والحوادث الجسام. فهو يصوّر لك اصدق تصوير في كتبه ثورة نفسه على النظام الحضري وعلى حياة الاستقرار التي اغرت سكان المدن بالركون الى النعمة والإخلاد الى العيش الرافه اللين ويريك كيف جاب اقطار الارض ورحل في ثياب الدراويش ثلاثين عاماً الى ممالك الاسلام جميعها وكيف كان يتحرّق بنار الشوق خلف القوافل المتّجهة شطر بيت الله الحرام وقد حج اليهِ اربع عشرة مرة يردّد التسابيح ويتغنى بأغاني الشوق ويرتل قصائد العشق الصوفي في الفدافد الرباية والحضرة المحمدية الكريمة وتوجد ويتشوّق على النحو الذي تراه في قصيدته التي يقول فيها

تعذّر صمت الواجدين فصاحوا ومن صاح وجداً ما عليهِ جناحُ
اسروا حديث العشق ما امكن التقى وإن غلب الشوق الشديد فناحوا
سرى طيف من يجلو بطلعتهِ الدجى وسائر ليل المبتلين صباحُ
اصيح اشتياقاً كلما ذكر الحمى وغاية وجد المستهام صياحُ

ويريك ايضاً كيف اسره الصليبيون والقوا بهِ في سجن نابلس يعمل في بناء الحصون ويتصبب عرقه من حمل الصخور وكيف افتداه من هذا الأسر تاجر حلبي وزوّجهُ ابنته فكانت هذه الزوجة على جمالها وثروتها محلة احزانه ومثار آلامهِ وكيف رحل الى الهند ووقف هناك يتفرس في صنم انوثنيين في أحد المعابد فرآهُ الحارس فتنه السعدي خشية أن يخبر عنهُ قومه فيقتلونه

ثم كيف حنّ بعد هذه الغربة الطويلة الى شيراز فعاد اليها وقد قارب السبعين وكيف كانت هذه الرحلات تمتاد عبقريته وملاحظته ومصدر خصبها ونمائها. وهنا يريك كتابه العظيم وديوان اشعاره الجامع «الكليات» كيف بدأ بهذه العودة عهد الاثمار — كيف بدأ الروض المزهر ينفح بالعطر والعقل المخصب يجود بالحكمة والقلب المؤمن يفيض بالعبرة والقلم البليغ يرسل السحر الحلال — كيف بدأ بهذه العودة يدوّن آثاره الادبية واشعاره واقاصيصه فأنشأ كتبه الاربعة الكلستان والبستان وبدائعه ودواوين اشعاره

وتدلنا قصيدته العظيمة التي وصف بها نكبة بغداد وبكى بها مجد العرب وبيت الخلافة انهُ قد رحل مرة اخرى الى هذه المدينة وما جاورها كواسط وعبادان حين سقطت في ايدي التتار وشاهد طولها وخرابها بعد ان شاهدها جنة الدنيا وتاج المدائن . ويبدو لنا ان هذه الرحلة لم تكن طويلة وان هموم الشاعر واحزانه على هذا الملك الساقط لم تحبب اليهِ البقاء فيها فهو يستهل هذه القصيدة بقوله :

حبست بجفني المدامع لا تجري فلما طغى الماء استطال على السكر
نسيم صبا بغداد بعد خرابها تمنيت لو كانت تمر على قبري
لأن هلاك النفس عند اولي النهى احب لهُ من عيش منقبض الصدر

ثم يقول :

أيا ناصحي بالصبر دعني وزفرتي اموضع صبر والكُبُود على الجمر
وقفت (بعبادان) ارقب دجلة كمثل دمٍ قان يسيل الى البحر
وفائض دمعي في مصيبة (واسط) يزيد على مدّ البحيرة والجزر
فاين بنو العباس مفتخر الورى ذوو الخلق المرضي والفرر الزهر
غدا سمراً بين الانام حديثهم وذا سمر يدمي المدامع كالسمر
جرت عبراتي فوق خدي كأنها فأنشأت هذا في قضية ما يجري
سطرت ولولا غض عيني من البكا ترقرق دمعي حسرة فمحا سطري
أحدّث أخباراً تضيق بها صدري وأحمل اوقاراً ينوء بها ظهري
ألا أن عصري فيهِ عيش مكدر فليت عشيَّ الموت بادر في عصري

وهو في هذه القصيدة يملي مواجع قلبه واحساساته الأليمة على مصير الخلافة والاسلام ويجزع من المنحدر السحيق الذي يهوي اليهِ تاريخ الجامعة الاسلامية بحضاراتها وعلومها وعزتها ومجدها السامي العظيم وتكاد هذه القصيدة تكون هي الوحيدة في الشعر العربي التي صوّرت تصويراً رائعاً هذه النازلة الكبرى التي نزلت بالمسلمين وذهبت بعظمة سلطانهم ومجد خلافتهم

وأدب السعدي يتمتع بمميزات الادب الفارسي جميعها من العناية بالتشبيهات والاستعارات والجمال اللفظي والخيال الملهم بأبدع صور الجمال الطبيعي والغزل الصوفي والتأثر إلى حدٍّ ما بالثقافة الاسلامية ولكنه يمتاز عن أدب نظرائه من الشعراء المعاصرين بانه استطاع على الرغم من ولوعه بروح التصوف والآداب الدينية وعيش الدراويش أن يقسم شعره ونثره بين الحياتين : الروحية والمادية ويمنح كلاً منهما من ذلك نصيبه الكامل فقد وفق أتم توفيق الى أن يرضي الفقراء والأغنياء جميعاً . وهو هو الذي جعل أدبهُ أسير وأشهر من أدب غيره من شعراء فارس جميعهم

وكتابات السعدي تدل على انهُ قد تأثر إلى أبعد حد بأستاذه ابن الجوزي فهو يجري في الكلستان والبستان مجرى هذا الشيخ في كتبه الاخبارية كأخبار الاذكياء والمجانين ونوادر الملوك وغيرها وكذلك تبعهُ في كتبه الوعظية متابعة بيّنة . وذلك يدلنا على ان حظ السعدي من علوم الجدل لم يكن وافراً وأن دراسته كانت تهذيبية عملية تتصل اتصالاً وثيقاً بالحياة ومشكلاتها وتعنى في معالجتها بأسلوب الارشاد والقصص التي تسلكه الشرائع كثيراً في الدعوة الى الاصلاح

ولم يترك السعدي غرضاً من اغراض الشعر لم يقل فيه . فقد مدح ورثى ووصف واشتاق وتغزّل ولكن حظ الهجاء من شعره وغم تفاوره وفكاهته وقسوة لسانه كان قليلاً . اما غزله وهو اظهر هذه الاغراض في شعره فانه وان لم يبلغ في نظر النقاد ما بلغت غزليات حافظ التي تعتبر في القمة من غزل الآداب العالمية وعلى الرغم من ان معانيه عامة لا ابتكار فيها الا نادراً، على الرغم من ذلك كله فقد تمتع بحظ وافر من الروحانية التي تجعله محبوباً مستطاباً الى النفس وهو يسوق هذه المعاني مساقاً وجدانيًّا يسهوي ويعجب . أفلا تراه يبث السحر في قوله :

قد اذعتم روائح المسك طيباً وبهرتم محاسن الورد نشرا
فنسيم النسيم حيث حللتم حلّ بالواردين روح وبشرى
مقل علمت يا بل . . هاروت على ان تعلّم الناس سحرا
جمرات الخدود أحرقن قلبي وتبقين في الجوانح جمرا
برزوا والربا تظل تنادي ما لهذا النسيم يحمل عطرا

ابداً لا افيق من سكر عيشي ان سقتني من المراشف خمرا

وفي قوله من قصيدته التائية التي تشبه كلَّ الشبه في روحها ونسجها تائية ابن الفارض المشهورة :

ألم تزني في روضة الحب كلما ذوت — مطرت سحب العيون فبلت
أما كان قتل المسلمين محرما لحى الله سحر الحي كيف استحلت
وها نفس السعدي اذكى تحية تبلغهم ريح الصبا حيث حلت

وفي قوله من قصيدة اخرى :

حدائق روضات النعيم وطيبها تضيق على نص بجور حبيبها
فيا ليتَ شعري اي ارض رحلوا وبيني وبين الحي بيد أجوبها
ذكرت ليالي الوصل واشتاق باطني فيا حبذا تلك الليالي وطيبها

موضوع السعدي طويل اكتفي منه بهذه اللمحة واختم القول فيه بذكر ابيات من قصيدته العاشرة التي يتحدث فيها حديث السكارى بخمر العشق الرباني :

يا صاحبي يوم الوصال تنادماً كنْ لي ليالي بعدهنَّ سميرا
هل بت يا نفس الربيع بجنة أم جئت من بلد العراق بشيرا
عجبي بأني لست شارب سكر وأظل من سكر الهوى مخمورا
صرفاً محا عقلي وردَّ قراءتي شعراً وصيَّر مسجدي ماخورا
ظمأ بقلبي لا يزال يسيغهُ رشف الزلال ولو شربت بحورا
قطع المهامه واحتمال مشقة لرضى الأحبة لا اظن كثيرا
حسو المرارة في كؤوس ملامة حلو اذا كان الحبيب مديرا

وهو في هذا الهوى الالهي يذهب مذهب التصوف في الانصراف بنفوسهم الى الذات الالهية يعشقونها وحدها ويقطعون من قلوبهم كل امل بفوائد هذا الحب وآثاره كما رووا ذلك عن السيدة رابعة العدوية . ويظهر هذا في شعر السعدي في قوله :

يا من به السعدي غاب عن الورى ارفق بمن اضحى اليك فقيرا
صلني ودع ثم النعيم لاهله لا اشتهي الاَّ اليك مصيرا
فلعلَّ ان تبيض عيني بالبكا ارتد يوماً ألتقيك بصيرا

مصر بهية فرج